شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٣٦

الإستقامة

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْت [1] 1

- ماهية الاستقامة 2
- تحقيق الاستقامة 4
- وصف الاستقامة 6
- الاستقامة وتراتيب شعب الإيمان 9
- السمت الظاهر للاستقامة 10
- مداخل الشيطان على الاستقامة 11
- استقامة الحاكم وعلاقته بالرعية 12
- الرياء وأثره على الاستقامة 13
- غلظة الناصح وأثرها على الاستقامة 15

[1] رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=N4XaxTXYyCw

ماهية الاستقامة

جعل الله تعالى هذه الأمة على صراطٍ مستقيم فمن سلكه كان مستقيمًا على المنهج القويم وحينما أمر نبيه﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: 112) يعنى كما أمرك الله لا كما تريد أنت ويريد الناس وهو في مقام النبوة فكيف بمقام غيره !.

ومعنى الاستقامة من جهة اللغة هو ضد الانحراف فالانحراف على أشكال متنوعة بخلاف الاستقامة التي تكون على خط واحد ، وهذا دليل قطعي أن الحق في ذاته واحد ولكن الشر يتعدد ولهذا الناس من جهة معاصيهم يختلفون ولكن من جهة الحق فهو واحد .

والحق واحد حتى في معادلات العلم والمعرفة المادية فلا يحتمل وجهين إلا على سبيل الظن والتوهم.

صوّر النبي ﷺ هذه الاستقامة التي أُمر بها كما جاء في الحديث الذي جاء (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَسَارِهِ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا فَقَالَ:هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ،وَقَرَأَ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ))[٢].

فالاستقامة هي سلوك هذا السلوك وهذا ظاهر في قول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف: 108) لهذا ذهب غير واحد من العلماء إلى أن المراد بقول الله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هو القرآن أي استقم على القرآن كما جاء في تفسير ابن جرير الطبري عَنْ سُفْيَانَ فِي قَوْلِهِ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ قَالَ : اِسْتَقِمْ عَلَى الْقُرْآنِ .

أَمر النبي ﷺ بأن يدعو وتدعو أمته بهذا الدعاء الذي تضمنته سورة الفاتحة – السبع المثاني– في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 6) فالصراط المستقيم هو بمفارقة اليهود والنصارى ومفارقة الفاسقين والباغين ولو كانوا في دائرة الإسلام لم يخرجوا منها بسببٍ من المكفرات .

٢) رواه أحمد (1/435) (4142) ، والدارمي (1/232)(208) والنسائي في سننه الكبرى (6/343)(11174).

والله تعالى حينما أمر النبي ﷺ بالاستقامة فهي الموجودة بالعلم السابق الذي سبق ذلك السلوك وذلك أن الإنسان حينما يفتح طريق لأحد أو يرسمه ثم يأمر غيره بسلوكه فهذا دليل على أن هذا السلوك واضحٌ وبين وهذا ظاهر في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : 153) وقد روى ابن جرير الطبري في كتابه التفسير من حديث عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيح ، عَنْ مُجَاهِد ، فِي قَوْل اللَّه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيله ﴾ قَالَ : الْبِدَع وَالشُّبُهَات)[٣] والبدع والشبهات هي مفارقة للطريق المستقيم ، وحينما يقول الله ﴿استقم﴾ يعنى لا تعوج ومعنى هذا أن السبيل الذي أنت فيه مستقيمٌ وعليك أن تسلكه لا أن تخرج عنه ، ولهذا قال غير واحد من العلماء أن المراد ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي اثبت على ما أنت عليه بألا يأتيك شيء من الانتكاسة أو الضعف والفتور ثم تديم عليه ، لهذا أمر الله بسلوك الحق والثبات عليه من غير انحراف .

ومن هنا نأخذ جملة من المعاني :

المعنى الأول : أن الحق واحد كالخط المستقيم .

المعنى الثاني : الاستقامة تكون كالخط المستقيم الواضح البين بخلاف الخطوط المعوجة التي تكون بين الطرق أو الأودية أو جبال فلا يرى منها الإنسان إلا مقدار ما استقام منه من الطريق ولا يرى ما يحجب عن بصره بحجر أو شجر أو وادي أو غير ذلك .

ولهذا الشريعة جاءت ببيان الصراط المستقيم حتى لا يخرج عنه الإنسان بتوهمات أو تخرصات أو ظن ولهذا يقول النبي ﷺ في هذه الخطوط (عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْه)[٤] فتعددت سبل الشر وسبيل الخير في ذلك واحد .

---

٣) رواه الطبري في تفسيره (12/229)(15232).
٤) سبق تخريجه : انظر(2).

وهذا ظاهر في كثير من مواضع القرآن كقول الله ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257) فذكر الله الظلمات متعددة بينما النور واحد;والسبب في هذا أن الله ابتلى الإنسان باختلاف رغباته فثمة شهوة سمع وبصر وفرج وشهوة مأكل وملبس وثمة شهوة مال وجاه وثمة شهوات نفسية وربما تختل من حال إلى حال فإن لم يغوي الشيطان الإنسان بالبصر يغويه بالمأكل والمشرب وهكذا;ولهذا لما أمر الله نبيه كما في قوله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْت﴾ أمره بالثبات على الكتاب والسنة مما جاء في الوحي وثبت عليه .

تحقيق الاستقامة

أولاً : العلم عتبة الاستقامة

لابد أن يسبق الاستقامة العلم فالإنسان لا يمكن أن يستقيم ويمارس الخير إلا وقد علمه قبل ذلك وإلا أصبح عمله تخرصًا فأول أعتاب الاستقامة العلم .

والجهل الذي يكون من وساوس النفس أو يُقذف من شياطين الأنس والجن بتلبيسات وأدلة واهمة إذا واجهه الإنسان بما لديه من علمٍ راسخ فإنه يكون من أهل الثبات والاستقامة .

ثانيًا : العلم الذي يحقق الاستقامة

هو العلم بالشريعة فلابد للشريعة أن تُفهم من جهة الحقيقة ومن جهة المقاصد والوسائل .

وأعلى الاستقامة هو التوحيد فلا استقامة مع الكفر ونواقض الإيمان فالواجب على الإنسان أن يحقق الإيمان في قلبه ولسانه وجوارحه وهذه هي أعلى مراتب الاستقامة وأصلها ثم كل أنواع الاستقامة تتفرع على ذلك الأصل .

والبعض ينظر إلى الفرعيات ويظنها استقامة ، والله قد جعل عبوديته هي أصل الاستقامة وكل استقامة هي فرع منها ، أما الجانب الفطري المغروس في قلب الإنسان من التراحم وبر الوالدين فهذه من أعمال البر ووجه من وجوه الاستقامة إذا بُنيت على التوحيد والإيمان .

ولهذا تجد أن أعمال البر موجودة لدى أهل الكتاب والمجوس والملاحدة فهي من الفطريات فالرحمة وكف الأذى من المحمودات لكن لا يثاب عليها الإنسان في الآخرة لأن هذا الجانب الفطري موجود حتى في جنس الحيوان ; ولهذا من الحيوان من يرفع ظفره عن مولوده حتى لا يصاب ، وكذلك الضرب والسعي والطيران كما في الطيور لجلب الرزق ، وكذا الذب عن القريب والرحمة بالصغير ، ومثل هذا موجود في البشرية ولكن ثمة خطابٌ شرعيّ تُفهم به الاستقامة وأعلى أمور الاستقامة التوحيد فمن حققه وصدق مع الله تحقق له الاستقامة .

واستقامة الكافرين جبلية فطرية فطروا عليها فاستمسكوا بها وليست استقامة الله المرادة كما جاء في الحديث (عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِّ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ لَا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [٥] فعمله فطري أراد منه حظ الدنيا وتحقق منه المقصد .

وكذلك في حال عَدِي بْن حَاتِم حينما سأل النبي ﷺ عن أباه (عن عدي بن حاتم قال قلت لرسول الله ﷺ إن أبي كان يصل الرحم ويفعل ويفعل فهل له في ذلك – يعني : من أجر – ؟ قال : " إن أباك طلب شيئاً فأصابه ")[٦] ، فلابد من النظر إلى الأصل وهو الإيمان فإذا تحقق تبعه لوازمه من جهة الثواب والأجر وآثار الطاعات .

وكما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَفْضَلُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)[٧] .

٥) رواه مسلم (1 / 136).
٦) رواه أحمد (32 / 129).
٧) رواه البخاري (9) ، ومسلم (35) .

وشعب الإيمان أكثر من هذا فالمراد بهذا العدد هنا أصول الشعب وإلا المتفرعة فهي أكثر بكثير وقد جمع البيهقي الكثير منها كما في كتابه شعب الإيمان .

ولابد أن يعمل الإنسان بالأصول ثم الفروع بحسب منزلتها فالشريعة ترتيب فكما جاء في الحديث الموقوف (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : " إِنِّي أُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ ، إِنْ أَنْتَ قَبِلْتَهَا عَنِّي : إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقًّا بِاللَّيْلِ لا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ ، وَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقًّا بِالنَّهَارِ لا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ ، وَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لا يَقْبَلُ النَّافِلَةَ حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ) [٨]

فيجب على الإنسان أن يبدأ بالواجبات ثم يأتي على الفروع .

وفي قول النبي ﷺ (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً) إشارة إلى الإيمان إذا تحقق فيه الواجب وفعل مجموع المندوب فإنه يكون من أهل الاستقامة ويكمل إيمانه ، وأما نقص الإيمان وزيادته فبحسب الطاعات والمحرمات ما لم يكن في ذلك كفر .

وصف الاستقامة

جاءت الشريعة بالعناية بالظاهر والباطن فإذا تحقق الظاهر على الإيمان وخالفه الباطن فهذا هو النفاق ، وإذا وجد شيء في الباطن بزعم ولا يوجد ما يؤيده بأن يقول أنا مؤمن ولا يعمل شيء يثبت هذا الإيمان فذا أيضًا نفاق .

وكما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [٩] فالقلوب هي المنبت والنواة وأصل الثمرة الظاهرة ، فإذا وضع الإنسان نواة ثم طال أمدها ولم تخرج انتاجًا فهي نواة فاسدة وإلا لو كانت صالحة لابد أن تنتج فلابد من تلازم الظاهر والباطن .

---

٨) رواه ابن المبارك في الزهد(ص/319) ، وهناد في الزهد(284/1) ، وابن أبي شيبة في المصنف(92/7 ، 434) ، وسعيد بن منصور في سننه(134/5) ، والخلال في السنة(275/1) ، وأبو نعيم في الحلية(36/1) ، والربعي في وصايا العلماء(ص/33-35) ، من طرق عن أبي بكر الصديق في ذكر وصيته لعمر - رضي الله عنهما- وفيها : (وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة).

٩) رواه مسلم في البر والصلة (2564).

وأعمال الباطن على مراتب ودقائق صغيرة ومنها عظائم كالمحبة والرجاء والخوف .

والظواهر على مراتب كما قال النبي ﷺ (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً) [١٠] فإماطة الأذى من الشعب الظاهرة فهذه الشعب شبيه بالهرم الذي قاعدته التوحيد ثم يتعاظم ويتعاظم فإذا زال رأس الهرم يتناقص تبعًا لذلك وإذا زالت قاعدته يتناثر ولا يبقى له أصل .

فلا نعتبر بظواهر الناس مع عدم وجود شيء باطن ، فلابد من تلازم الظاهر والباطن .

وعدم وجود الباطن كحال الملحد الذي لا يصدق في وجود الله عز وجل ولكنه يحسن التصدق وكف الأذى والإحسان إلى الجار فهذا فطري بمنطق عقلي ولكن من جهة أمر الله تعالى فقد كفر.

وقد جعل الله دليلين في الإنسان : الدليل العقلي والدليل الشرعي .

والذي خلق العقل هو الذي أنزل الوحي على نبيه وبهاتين الدلالتين يستطيع الإنسان أن يعرف الحق فينقاد له .

قد يخالف الإنسان في جانب الظاهر وهو مؤمن فهو عاصي لله ولكنه خيرٌ ممن عدل في الظاهر وكفر بباطنه;فالمؤمن الفاسق خير من الكافر مهما كان عادلا مع الناس لأنه عدل مع الله تعالى ولو وقع منه التقصير .

ولهذا قد جاء في الحديث (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا : حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ ، قَالَ : ثُمَّ سَكَتَ ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا : حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا ") [١١] فالنفوس البشرية مفطورة على الأخذ بالظاهر فتجد من الناس من يكفل الفقراء ويضع دور الأيتام ولكنه كافر بالله أو ملحد وتجد من الملحدين من يحب أن يخلف من بعده خيرًا فهذا فطري ويتسع ويضيق بحسب منظار الإنسان فهذه معايير دنيوية محضة.

١٠) سبق تخريجه :انظر (7).
١١) رواه البخاري برقم 6447 من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وقد جاء في الحديث (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ " ثُمَّ قَرَأَ (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) سورة الكهف آية 105)[١٢] لأنه جسد خاوي بلا إيمان فالله عز وجل لا ينظر للظواهر .

ولذلك سمي يوم القيامة يوم الفضائح لأن ثمة أشياء مستورة لدى الناس يبديها الله عز وجل فحينئذٍ يختلط الظاهر مع الباطن فيمتاز الصادق على الكاذب .

وأما الجمع بين قولهﷺ" هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا " وقوله "أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ " فيكون على النحو التالي :

ما جاء في الحديث السابق (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)[١٣] والحديث الآخر الذي جاء فيه (مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)[١٤] لا تعارض بينهما باعتبار أن (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) هذه شهادة عامة مما يستفيض في الناس أما (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) تفاضل بين فردين فالتفاضل ليس بالعمل الظاهر وإنما بالعمل الباطن فله أثر مؤثر بخلاف قوله (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) فهذا حكم على فردٍ بعينه وشهادة له فلم يقارن بغيره فهذا حكم ٌ خاصٌ عليه .

والعمل الباطن إذا قوي وصاحبه شيء من الصدق والإخلاص فإنه يعظّم العمل الظاهر ولو كان دقيقًا ، والعمل الظاهر إذا كان عظيمًا وصاحبه شيء من ضعف الإيمان يضعف في ذاته.

وبعض الناس عمله قليل ولكن تجد له القبول وحسن ظن عند الناس في قوله وهذا يكون لعظم العمل الباطن الذي يصاحب ظاهره ، فربما الإنسان يفعل حسنة صغيرة ولكن يفعلها بشيء من التعظيم فتُعظم وهي صغيرة ، وإذا فعل إنسان كبيرة ربما يصغر آثرها مع كونها كبيرة ; والسبب في هذا أن الإنسان فعل هذا وهو وجل من الذنب مترقب وأما غيره يفعله وهو غير مكترث .

١٢) رواه البخاري (4729) ومسلم (2785).
١٣) سبق تخريجه : انظر (11).
١٤) روى البخاري (1367) ومسلم (949).

وقد جاء في الحديث (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ) [١٥] فهذا ليس لكل شخص يسقي الكلب فبرغم أن اقتناء الكلب محرم لكن هنا التي سقت الكلب باغية والباغية ليست هي الزانية وإنما التي تجعل الزنا مهنة لها كالتجارة فكفّر الله عنها ذنبها لأنها وجلة من ذنبها مستحضرة لأثره عليها ترجو القبول من الله والمغفرة فقرن العمل بالاستغفار بخلاف الإنسان الذي يفعل حسنة ولا يحصر ذنوبه ويستحضرها .

والشيخ الزاني والملك الكاذب أعظم جرمًا من الشاب الزاني والفقير الكاذب فكبير السن الذي يقع في الزنا قد انتفت لديه دوافع الزنا بكبر سنه ، وكذلك الملك الكاذب علام يكذب فكذبه أعظم من كذب العامي والفقير مع كون الكذب كبيرة في الحالتين كما أن الزنا كبيرة في الحالتين .

والاستقامة ظاهرة وباطنة وبعض الناس يأخذ بالمعايير الظاهرة وينظر إليها على أنها استقامة وثمة معاييرللاستقامة منها قلبية ومنهاعملية ، وأصل الاستقامة التوحيد وعدم الإشراك بالله باعتبار أن الله لا يقبل من مشرك عملًا صالحًا حتى يؤمن بالله.

الاستقامة وتراتيب شعب الإيمان

إذا تحقق في الإنسان أصل الإيمان ومجموع شعب الإيمان فهو على الاستقامة بمقدار استيفاء الشعب من الصلوات والزكاة والحج وأعمال البر وترك المحرمات ، أما إذا تحقق فيه شعب الإيمان وهو كافر فلا يمكن أن يوصف بالاستقامة .

وثمة جانب يظهر لبعض الناس أنهم يربطون الاستقامة ببعض الأعمال الخيرية والحسنات ، والاستقامة تأتي على تراتيبها فلا يترك الأولى ثم يصف الناس التارك بالاستقامة ، فالنبي ﷺ شدد في جانب الصلاة كما جاء (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : " مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ ، وَكَانَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ

[١٥]) رواه البخاري(376/2) ومسلم (45/7) .

بْنِ خَلَفٍ "[١٦] ، رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَد ، عَنِ الْمُقْرِئِ ، وزاد : مَعَ قارون وفرعون وعنده عَنْ عيسى) ،وقوله ﷺ (ليس بَيْنَ العبد وَالشِّرْكِ إِلا تَرَكَ الصَّلاة) "[١٧] ، وكذلك قوله ﷺ (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَرْكُ الصَّلاةِ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) "[١٨] فإذا فرط الإنسان في الصلاة ثم أتي بأعمال البر والأخلاق فلا يمكن أن يكون مستقيمًا ، كذلك الجماعة لا يمكن أن يفرط الإنسان في الجماعة ثم يوصف بالاستقامة ولو كان ظاهره الطاعات من صدق الحديث وحسن الخلق وذلك لأنه ترك ما هو أولى من ذلك .

فلابد أن يأتي الإنسان بتراتيب شعب الإيمان فما يتعلق بجوانب الفرائض يأخذ بها على الترتيب فيوصف بالاستقامة ، فتجد من الناس من يؤخر الصلاة عمدًا حتى يخرج وقتها ويسمى نفسه مستقيمًا والله عز وجل يقول ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون : 5) قد جاء عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ (قُلْتُ لِأَبِي ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أَهِيَ تَرْكُهَا ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنْ تَأْخِيرَهَا عَنْ وَقْتِهَا)[١٩] .

السمت الظاهر للاستقامة

السمت الدائم اللازم : إعفاء اللحى وعدم إسبال الثياب .

السمت العارض : الصدق في الحديث إذا تحدث ، والأمانة إذا أؤتمن ، وغض البصر إذا نظر ، فمتى ما عرض على الإنسان هذه الأمور فقام بالامتثال لأمر الله عز وجل فهذا سمتٌ عارض .

والناس يتباينون في هذا الجانب إما بسبب جهل فيعلق الاستقامة بفعل معين أو لمحاكاة الناس ، والناس قد يتفشى فيهم المنكرات كما كان في قوم نبي الله لوط كما جاء في قوله تعالى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ (العنكبوت : 29) وهم في زمن قريب من الفطرة لم تكن تبدلت الفطر كما في زماننا ; لهذا لا علاقة لانتشار الشر كالزنا والسفور بما يجب أن يكون عليه الناس وإنما الميزان هو ميزان الشريعة ولا عبرة لميزان الناس في ذلك .

---

١٦) رواه أحمد (169/2) (6540).
١٧) رواه ابن ماجه في سننه (1080).
١٨) رواه الترمذي في سننه (2621).
١٩) انظر تفسير الطبري لسورة الماعون (ص 631) .

والله عز وجل يجعل للعبد المتمسك بالخير في حال شيوع الباطل أعظم أجرًا ممن يفعل الخير مسايرةً للناس في شيوعه .

ولذلك الإقبال على الله في حال الإعراض عنه أعظم من الإقبال على الله في حال إقبال الناس عليه.

ولهذا فرق الله بين من آمن من قبل الفتح وهاجر وبين من آمن بعد الفتح لا يستوون !.

بعض الناس يعيش في بيئة ليست مستقيمة ثم يستقيم بشطر شعب الإيمان بعد توحيد الله فهو أعظم عند الله ممن جاء بأكثر شعب الإيمان في بلاد التوحيد والصحوة لأنه تمسك في زمن نفرة الناس من الحق فالأجر بمقدار التكلف والصبر عليه .

والصبر على أنواع : صبر على فعل الخير ، وصبر على الطاعات ، وصبر على المصائب ، فصبر الناس على الطاعات في زمن المعاصي بلا مؤانسة من أحد لا شك أعظم عند الله تعالى أجرًا .

مداخل الشيطان على الاستقامة

بعض القرناء يقول صرفًا عن الحق : أنت على الحق!.

والمقياس هو الكتاب والسنة ولهذا يقول تعالى﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ليست بالهوى فالخطاب لرسول الله أن يستقم كما أمر الله لا كما يريد وهو الموحى إليه والمعصوم ﷺ.

ومن تلبيس الشيطان ومداخله إذا مال الإنسان إلى خير وأقبل عليه ثم علم الشيطان منه ذلك الإقبال ورأى ذلك فيقوم بصرفه إلى عمل أدنى حتى يفرغه ويفوت عليه العمل الأعلى لأن قدرة الإنسان ليست مطلقة وإنما محدودة .

ومن مداخل الشيطان أيضًا : أن يعرض على صاحب المعصية عمله الصالح الذي ربما فعله من سنين حتى يظن أنه من أهل الجنة فحجب عنه عمله السيء وجعله يتذكر الطاعة ، ولهذا تراكم السيئات ينساها الإنسان وأما الطاعات يتذكرها بتسويل إبليس;فعلى الإنسان الموازنة.

ولهذا بعض الصالحين كان يجمع حصىً كلما أذنب ذنبًا ، ولهذا السيئات إذا أراد الإنسان أن يحصيها ما فعل ولكن أحصاها الله عز وجل ولو نسيها الإنسان ، فلابد من الموازنة بين السيئات والحسنات والمقياس الحقيقي للموازنة هو بميزان الشريعة .

جاء في الحديث قال ﷺ (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ" قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ ﷺ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) [٢٠] فالقضية قضية مقاومة بين السيئات والحسنات والغلبة في ذلك للأغلب والله سبحانه يعفو عمن يشاء بفضله .

استقامة الحاكم وعلاقته باستقامة الرعية

جاءت الشريعة بإصلاح الأفراد وإصلاح المجتمعات وإصلاح أصحاب الولايات فثمة تلازم في صلاح الأمة فإذا لم يجتمع هذا الإصلاح فيكون الخلل ولهذا وجه النبيﷺالحاكم لإصلاح رعيته.

وأما إذا كان الحاكم صالحًا في ذاته ولم يصلح رعيته فهو من جهة الحقيقة ليس مصلح لأنه قد وقع في أعظم السيئات وهو ترك الإصلاح لقول رَسُولَ اللهِ ﷺ (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) [٢١] يعني أنه ما دخل النار إلا بذنب عظيم بسبب غش رعيته فأعظم الذنوب لديه هذا الذنب .

فإن أعظم ما يهلك الحكام هو تعطيل جانب الإصلاح في الرعية خاصة ما يتعلق بالتوحيد ودفع الشرك وكذلك برفع المظالم بأنواعها والحريات وعدم الظلم بالحبس والعقوبة بلا بينة فهذا من إهدار حق الرعية .

---

٢٠) رواه مسلم (1997/4) (2581) .
٢١) رواه مسلم (165/2) .

وصلاح الحاكم لا يمكن أن يكون إلا باستفراغ الوسع في إصلاح الرعية .

وإذا لم يكن الحاكم خطيبًا ناصحًا في المحكومين بتوجيه النصح للرجال بالتوحيد ، والنساء بالستر والعفاف ويوجه الناس على حد سواء بما أمرهم الله من شريعته فإنه مقصر بذلك .

والحاكم ما جعله الله حاكمًا وواليًا ليصلح من جهة المعيشة فقط ولكن من جهة إقامة الدين أيضًا ، فهل الحكام أمروا بالصلاة أمروا النساء بالستر والعفاف أمروا الناس بترك الربا وأكل الأموال والخوف من الله ووجهوا الخطاب لهم على سبيل الدوام !.

ولهذا العبرة ليست بصلاح الدنيا وإنما هي الرسالة النبوية الشاملة لإصلاح أمر الدين والدنيا التي وجب امتثالها وأما أمر الدنيا فكلٌ يحسنه ويستطيع أن يؤدي رسالته .

الرياء وأثره على الاستقامة

الرياء هو مما يبتلى به الإنسان وهو على مراتب ودرجات بحسب عبادة الإنسان ومحيطه .

والرياء هو حب الإنسان أن يرى الناس عمله وحب سماع مدحه والثناء عليه بين الناس .

وسبب الرياء أن الإنسان لديه عمل ظاهر وليس لديه عمل باطن ولا أعلم أحد شكى الرياء من جهة أفعاله إلا وهو مقل من عبادة السر .

فلابد من عبادة سر لا يعلم بها أحد حتى زوجه أو ولده كالصدقة والتسبيح فعليه أن يفرح بالخلوات للصلوات كما يفرح صاحب المعاصي بالخلوات للشهوات .

وعلاج الرياء : في عبادة السر فمن أكثر من عمل السر قل عنده الرياء في عمل العلانية ، فإذا كان لديه رصيد كبير في عبادة السر لا يعلم بها أحد فإن الرياء في عمل العلانية يأتي ضعيفًا أو معدوما لأنه كيف يرائي في ركعة وهو يؤدي عشرين في خلوته فإخلاصه أقوى وأجلى ودوافعه لخطرات الشيطان قوية .

ولهذا قد جاء رجل لحذيفة بن اليمان (جاء رجل إلى حذيفة ، فقال : يا أبا عَبْدِ اللهَّ ، إني أخشى أن أكون منافقا ، قال : تصلي إذا خلوت ، وتستغفر إذا أذنبت ؟ قال : نعم ، قال : اذهب ، فما جعلك الله منافقا)[٢٢] .

فالذي يؤدي العبادات سرًا ولا يراه أحد يحميه الله تعالى من الرياء وهذا من أعظم أسباب ووجوه علاج الربا.

فليجعل الإنسان له نصيبٌ من عبادة السر فإذا خلى استغفر وصلى لله قرأ القرآن يغتنم تلك الخلوات ثم لا يخبر بها أحد فبعض الناس يفعل الخير ثم يخبر بها فيقول فعلت كذا وكذا فحينئذٍ كأنه فعلها أمام الناس مشاهدة .

ومن وجوه العلاج

إذا طرأت خطرات على الإنسان فعليه أن يقوم بطردها ولا يعطل العمل من أجل الرياء فإن ترك العمل من أجل الرياء هو أيضا من وجوه الرياء ، فعليه الاستعانة بالله واستحضار عظمة الله وطرد عظمة غيره ، كذلك إذا مدح على عمل علانية فليطهّره بعمل سر .

٢٢) الترغيب والترهيب (167/1).

غلظة الناصح وأثرها على الاستقامة

الناصح مُخاطب باللين في الخطاب والإحسان وعدم الإساءة للمنصوح فربما يكون الإنسان مُنفرًا فيأثم بآثام الناس .

وبالنسبة لصاحب الحق ليس له أن يدع الحق لمجرد سوء الأسلوب الذي توجه إليه لأن العبودية تكون لله وليست لفلان وفلان ولهذا يأثم المرء بترك الحق ولو أساء إليه الناصح بغلظة وشدة مادام أنه عرف الحق؛لذا ينبغي أن يعلم أن الله عز وجل أمر الناس بأوامر لامتثالها فالربط يكون بالشريعة لا بفلان وفلان .

وكذلك الذين يحذرون من دعاة وعلماء فهناك أفراد ليسوا بحاجة للتحذير من الكاتب الفلاني والداعي الفلاني فربما دخل في الإسلام حديثًا فلا يمر بهذا الكاتب ولا يسمع به لعشر سنوات أو عشرين سنة .

فالتحذير ربما ينفّر من دين الله تعالى فعلى الإنسان تقوى الله فلا يكن منفرًا ينهج نهجًا لم يكن النبي ﷺ عليه.

⁂